وقفة مع الشاعر نزار ساعة الاحتضار

يُعد الشاعر الشامي نزار قباني واحدا من أبرز شعراء العربية المعاصرين، وأكثرهم حضورا في الساحة الأدبية، وذلك لتميزه بالاقتدار الفني والتجديد الشعري، وامتلاك ناصية اللغة. وقد حظي بتلقف الإعلام لنتاجه وإشاعته وترويجه على صفحات الدوريات وشاشات التلفزة، وعلى ألسنة المغنين المشهورين.

كانت إطلالة نزار على الدنيا عام ١٩٢٣م، في بيت دمشقي كثير الماء والزهر، عامر بالأدب والثراء من منازل دمشق العريقة، ولما بلغ أشده درس الحقوق ثم التحق بوزارة الخارجية، وسافر في بعثات سياسية إلى كثير من الأقطار(١).

وفي أثناء ذلك كانت قصائده تنهمر بغزارة، وتشغل الناس، وتثير النقاد على مدى أكثر من خمسين عاما حتى طواه الموت عام ١٩٩٨م في لندن.

بقلم: د . أحمد عطية السعودي

كان مشهد وفاته مؤلما مؤثرا، فقد اشتدت عليه ذبحة القلب فضاق صدره، واهتز بدنه، وارتعدت فرائصه، وغطاه العرق، والأطباء حوله في حيرة لا يملكون دفع الموت عنه بالرغم من مهارتهم، ورقي أجهزتهم، وحشد نبوغهم وعبقريتهم:

لله در الموت من خطبة
فيها استوى ذو العي والمصقع!

وكان نزار في شغل شاغل عنهم يستعرض في ساعة الاحتضار شريط حياته المملوء بالأحداث والذكريات والمثقل بالشجون والهموم فيبكي وينتحب من شدة أهوال الموت وسكراته، ويتمنى أن يرد إلى الدنيا، وينعم بالحياة كما كان، ولكن نزل أمر الله:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق-١٩).

واضطرب الأطباء، وحاولوا عبثا إنقاذ حياته، وهالتهم حشرجات هذا الشاعر، وهم ينظرون إليه غير قادرين على استعادة أنفاسه، واسترداد روحه:

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ● وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ● وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ● فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ● تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(الواقعة، ٨٣-٨٧).

كان نزار في هذه اللحظة العصيبة يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليجدد إيمانه، ويجوِّد أعماله، ويحسن فعاله،ويلقى الله بمحامد الأخلاق، وسوابق الخيرات، ولكن الأوان فات، وتصرمت الأوقات، وضاع العمر فما تنفع الأماني في أحرج الساعات:

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ● لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(المؤمنون ، ٩٩-١٠٠).

كان يتمنى أن يرد ليتوب إلى الله توبة نصوحا، ويقدره حق قدره بعد أن تطاول على ذاته وشرعه، و يعالج الأدب الأصيل بعد أن طارح الفن الماجن والأدب الخليع حتى فتن الناشئة المراهقة بشعره كما فتن السامري قوم موسى - عليه السلام- بعجله!

كان يتمنى أن يرد ليغير مضامين دواوينه وعناوينها فينشئ بقلمه السيال، وأسلوبه السهل الممتنع أدبا سامقا وفنا رفيعا يعلي ولا يدني، ويعمر ولا يدمر، ويرفع ولا يضع.

فيغير «طفولة نهد» إلى رجولة ومجد، وأن يكون شاعر المروءة بدلا من شاعر المرأة.

وأن يكون محلّ «أشهد أن لا امرأة إلا أنت»، «أشهد أن لا إله إلا الله» ومحل «هكذا أكتب تاريخ النساء»، هكذا أكتب تاريخ الشهداء، ومحل «كتاب الحب» حضارة على الدرب.

كانت أعز أمنياته أن يصحح مفاهيمه المغلوطة المبثوثة في ثنايا أعماله، ويتخلص من الظواهر الخطيرة الجاثمة على صدور قصائده ونفائس إبداعاته.

مفاهيم مغلوطة

◁◁ مفهوم الموت:

أفاض نزار قباني في الحديث عن الموت، ولونه بأشكال كثيرة، وصور مثيرة ليس بينها صورة واحدة للموت الحقيقي الذي تذوقه كل نفس، بل سخر منه، وأخرجه عن مفهومه إلى مفاهيم منحرفة، فهو يرى أن الموت:

أ - امرأة ذات منديل حريري تخطف العشاق وتتزوجهم:

يقول نزار بعد موت ابنه توفيق: «**هل الموت رجل، أم امرأة؟ لم أكن أناقش جنس الموت من قبل، ولكن بعد أن ذهب توفيق بكل وسامته وملاحته، وصورته اليوسفية تأكدت أن الموت امرأة.. ربطت خصلات شعره الأشقر الحريري.. وخطفته إلى بيتها قبل أن تخطفه واحدة من بنات الأرض..**»[٢].

ب - قبلة على الشفاه وفناء بينهما:

شفتان مقبرتان شقهما الهوى
في كل شطر أحمر تابوت
شفة كآبار النبيذ مليئة
كم مرة أفنيتها وفنيت
الفلقة العليا دعاء سافر
والدفء في السفلى، فأين أموت[٣].

ج - عشق وجنون:

يقول من قصيدة بعنوان (جسمك خارطتي):

زيديني عشقا... زيديني
يا أحلى نوبات... جنوني
زيديني موتا...
علّ الموتَ، إذ يقتلني يحييني [٤].

د. رسالة غرام ملونة:

لا شيء يفتح شهيتي في الدنيا
أكثر من ورق الدفاتر الملونة
أنا كالثور الإسباني...
يطيب لي أن أموت على أية ورقة ملونة[٥].

ليس الموت عرسا ولا قبلة، أو عشقا وشهوة كما صوره نزار بل هو حق وقضاء مبرم كتبه الله على الخلق، فيه شدائد وأهوال وسكرات لا يعرف مداها إلا من يعانيها، يهدم اللذات ويفرق الجماعات. وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه ما يجد من شدة الموت لابنه فقال: يا بني والله كأن جنبي في تخت، وكأني أتنفس من سم إبرة، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي، ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما بدا لي
في تلال الجبال أرعى الوعولا[٦]

◁◁ مفهوم الرجولة:

للرجولة الحقة دلالة واضحة في القرآن الكريم وفي حياة العربي الحر، فهي عفة ومروءة، وشهامة ونخوة، ورعاية وقوامة، وصدق العهد، وإخلاص التعبد لله تعالى، وجرأة في الحق:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾(الأحزاب ، ٢٣).

أما مفهومها عند نزار فمختلف تماما فليست تعني إلا هذه الأشكال:

أ- ممارسة العادة القبيحة:

فالرجل المدخن مثلا مصدر كبير لإغراء المرأة وإعجابها بفتوته ورجولته، بل تجثم على ركبتيها أمامه:

واصل تدخينك... يغريني
رجل في لحظة تدخيني
هي نقطة ضعفي كامرأة
فاستثمر ضعفي وجنوني
ما أشهى تبغك.. والدنيا
تستقبل أول تشرين[٧]

ب - مقارفة الزنا والحرام، فلا مكان للحكمة والطيبة:

أأصوم عن شفتيك؟
فوق رجولتي ما تطلبين
ما حكمتي؟ ما طيبتي؟
هذا طعام الميتين...[٨]

ج - فقد المبدأ والسوية:

فالرجولة عنده أخلاط شاذة من الطهارة والنذالة والتقى والكفر والبراءة والتوحش، لا يجمعها مبدأ، ولا تنتظمها سوية:

بطهارتي.. بنذالتي..
رجل أنا كالآخرين..
فيه مزايا الأنبياء..
وفيه كفر الكافرين..
وداعة الأطفال فيه..
وقسوة المتوحشين[٩]

◁◁ مفهوم الأنوثة:

والأنوثة هي مفتاح شخصية نزار، وكلمة السر في حياته لا يراها حشمة وعفافا، أو ذوقا وحياء، أو رهافة ولطافة تتجلى في فتاة خريدة أو زوجة وفية، بل الأنوثة عنده جسد عار، ومفاتن شهية بارزة، وحركات خليعة جاذبة:

أريدك أنثى..
بخطك هذا الصغير.. الصغير

أريدك أنثى..
بزينتك المدرسية.. وأطواقك المعدنية..
وشعر طويل وراءك يجري كذيل الحصان
وحمرة ثغر خفيفة [١٠]

مفهوم الإبداع والشعر:

يجد المتابع لإبداع نزار قباني تناقضا بين تنظيره لمهمة الأديب ونتاجه المثقل بأوهاق الجنس والإثارة والتحلل من القيم السامية. فمن تنظيره الذي خالفه جملة وتفصيلا، ولم يلتزمه:

- دعوته إلى التطابق بين الكاتب وكتابته:

«وأنا لا أفهم كيف يمكن لشاعر أن يتحدث عن المثل الأعلى، ولا يطبقه، وأن يتغنى بالجمال ونفسه مسكونة بالبشاعة، وأن يكتب عن الطهارة ولسانه غارق في الوحل»[١١].

ولذلك يعيب على توفيق الحكيم نشر كتابه «عودة الروح» بعد رحيل خصمه، وزوال نفوذه وتأثيره، ويتهمه بالجبن والرداءة، لأنه لم يصرخ في وجه الظالم، ولم يغضب، ولم تكن له مواقف معلنة، لأن الناس ينتظرون من الأديب أن يضيء لهم حاضرهم، ويضيء إدراكهم السياسي في فترة وقوع الحدث»[١٢].

- اعترافه أن الأمة لا تنتصر بالروح الجاهلية ولا بالعبث والغناء والفحش:

خلاصة القضية
توجز بعبارة
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهلية..
بالناي والمزمار
لا يحدث انتصار...[١٣].

- تقريره أن للشعر رسالة سامية تتضمن الحرية والأنفة، والترفع عن المغريات، والغضب حين تنتهك الأعراض والمحارم، وإن لم تكن هذه رسالته فلن يرضى الله عن الشعر المنحرف والفكر الزائف، ولا عن الكاتب الجبان المتخاذل:

ما هو الشعر؟ حين يصبح فأرا
كسرة الخبز همه والغذاء
وإذا أصبح المفكر .. بوقا
يستوي الفكر عنده والحذاء[١٤]

ويقول:

الشعر ليس حمامات نطيرها
نحو السماء، ولا نايا وريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره
ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا[١٥]

أما مفهومه العملي لأدبه وشعره فظهر جليا في رسائله وكتبه ودواوينه، ومن ذلك:

- العزف على أوتار العبث والخلاعة والإلحاد والتطرف السياسي[١٦]، وإفناء عمره في محاولة إخراج المرأة من نور الطهر والاحتشام إلى عتمة الرذيلة والسفور:

أكتب..
حتى أنقذ النساء من أقبية الطغاة
من مدائن الأموات
من تعدد الزوجات
من تشابه الأيام[١٧].

- ضعف التزامه خدمة قضايا أمته ومعالجة همومها.

ففي قصائده السياسية تحقير للعرب، وهزء وسخرية بالإنسان العربي، ووصف لبلادهم بالجنون والصداع والسعال والبلهارسيا، وأن مواطنيها يركضون كالكلاب كل ليلة من عدن

لطنجة، وأنهم أمة تبول فوق نفسها كالماشية ثم تحولوا إلى أبقار وحمير:

ملايين تجلس كالأبقار تحت الشاشة الصغيرة[18].

فأي عربي محب لأمته يسعه أن يتقبل ما قاله نزار عن العرب:

إياك أن تقرأ حرفا من كتابات العرب
فحربهم إشاعة وسيفهم خشب..
وعشقهم خيانة، ووعدهم كذب..
إياك أن تقرأ حرفا من كتابات العرب
فكلها نحو وصرف وأدب...[19].

■■ استخدام الرموز الوثنية والمنحرفة مع إضفاء طابع القداسة عليها، وتكرارها مرارا في نتاجه مثل:

(الصليب، البوذي، الإنجيل، الكنيسة):

أكره أن أكتب مثل الناس
أود لو كان فمي كنيسة
وأحرفي أجراس [20].

إن الأدب الذي يخدر الأعصاب، ويدغدغ المشاعر، ويثبط العزائم، ويضعف روح الأمة، ويشحن نفوس الناشئة بالتهافت على المتعة واللذة لهو أشد على الأمة من أجهزة العدو وحربهم النفسية، ومخططاتهم للهزيمة الماحقة.

وبعد،

فهذا هو نزار: المغاضب لربه، المستهزئ بدينه، المتعب بعروبته، الجاثم في محراب الجنس والشهوة، المنتشي بالسكر والخمرة، الجبان الفتان الذي استحوذ عليه الشيطان، وسقاه كيده المعسول، واتخذه ألعوبة بين يديه، وكرة في قدميه يركل به كل منحرف أفاك، وكل معربد سفاك إلى حمأة الرذيلة والهزيمة: ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾(النساء، ٣٨).

هذا هو نزار: الذي مجد الجائرين، وأطرى المستبدين، وسخر من الله أعدل العادلين، ولم يعلم أنه سبحانه وتعالى يمهل الظالم، ولا يهمله، فإذا أخذه لم يفلته.

هذا هو نزار: الذي نظم غرر أشعاره في النيل من الشرفاء، والتغزل بسيقان النساء، من أظافر وضفائر وحذاء، وبصاق ونخامة وطلاء، وهو يظن أنه حرر المرأة، وأخرجها من قمقمها، وسقاها اللبن والعسل، وأعلى مكانتها في كبد السماء، ولم يدر أنه رجع بها إلى الجاهلية حيث الوأد والظلم والشقاء، وأنه جعلها لقمة سائغة لكلاب الشهوة المسكونين بسعار الجنس ولوثة الاعتداء، وما أعجب انطباق كلامه عليه حين يقول:

لو يخصى كل المنحرفين...
وكل سماسرة الأثداء...!

هذا هو نزار: يكتب الشعر للعرب الذين يسميهم بالأغنام والحمير والأبقار من (فيلات) لندن وباريس على أريكة وثيرة تحتها كوم دولارات، وبجوارها مائدة شهية بأطيب المأكولات، ويزعق وينعق تحزنا على الملايين التي تركض من غير نعال.. الملايين التي لا تلقى الخبز إلا بالخيال.. والتي تسكن في الليل بيوتا من سعال...»!!

هذا هو نزار: وقد داهمه الموت فلا فرار، ولا مال ينفع ولا دولار، ولا «جنس» يشفع ولا أشعار، ها هو بحضرة الملائكة الذين اتهمهم بالحرية في ممارسة الجنس، واتهم خالقه وخالقهم سبحانه باتخاذ العشيقة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام، ٩٣).

هذا هو نزار في الاحتضار•: يتمنى لو يرجع، ليصلح ما أفسد، ويسلم قلبه وقلمه لله، ولكن:

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ • فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾(يونس، ٩١) ■

الهوامش:

(١) انظر: أحمد قبش، تاريخ الشعرالعربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).

(٢) انظر كتابه، الكتابة عمل انقلابي، ط١، منشورات نزار قباني، بيروت، ١٩٧٨م، ص٥٢.

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ط١٢، منشورات نزار قباني، ١٩٨٣م، ج١، ص٣٠٧.

(٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ط٦، منشورات نزار قباني، ١٩٨٦م، ج٢، ص٣٧.

(٥) الأعمال الكاملة، ج ٢ ، ص ٤٧١.

(٦) انظر: ابن فرح القرطبي،التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٠.

(٧) الأعمال الكاملة، ج ١ ، ص ٣٩٦.

(٨) الأعمال الكاملة، ج ١ ، ص ٤٣٦.

(٩) الأعمال الكاملة، ج ١ ، ص ٤٣٧.

(١٠) الأعمال الكاملة، ج ٢ ، ص ٨٢٠، ٨٢٤.

(١١) الكتابة عمل إنقلابي، ص١٨.

(١٢) المصدرالسابق نفسه، ص ٣٥-٤٠.

(١٣) الأعمال الكاملة، ط٤، منشورات نزار قباني، ١٩٨٦م، ج٣ ص ٧٧-٧٨.

(١٤ ، ١٥) الأعمال الكاملة، ج ٣ ، ص ٤٠١، ٤٢٥.

(١٦) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ١٨، المجلد الخامس، ١٤١٩هـ، افتتاحية العدد، د. عبدالقدوس أبو صالح، ص١.

(١٧) قصائد مغضوب عليها، ص١٥.

(١٨) مجلة العربي، العدد ٤٧٩، ١٩٩٨م، نزار قباني شاعر المرأة لا شاعر الأمة، جهاد فاضل، ص٤٥-٤٦.

(١٩) المجلة العربية، العدد ٢٥٣، السنة ٢٣، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، متابعات: نزار قباني، سهم الدعجاني، ص ٣٤.

(٢٠) الأعمال الكاملة ، ج١ ، ص٧٤٤.

• ما سطره الكاتب الفاضل عن نزار في هذا المقال يمثل نظرته من خلال ما تركه من أدب مكتوب، ولا يسوغ لأحد أن يحكم على أحد بما آل إليه أمره في الآخرة، وكل إنسان يتمنى الرجوع إلى الدنيا ليحسن إن كان مسيئا ويزداد إحسانا إن كان محسنا.

(التحرير)